دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الدراسات اللغوية عند العرب المحدثين
المصدر:	العربية للناطقين بغيرها
الناشر:	جامعة أفريقيا العالمية - معهد اللغة العربية
المؤلف الرئيسي:	حسين، مختار الطاهر
المجلد/العدد:	ع1
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2004
الشهر:	يناير
الصفحات:	119 - 151
رقم MD:	122225
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	اللغة العربية ، الدراسات اللغوية ، العصر الحديث ، الفكر العربي ، الفكر الغربي ، الانتاج الفكري، علم اللغة ، علم الاصوات ، علم الدلالة ، المؤسسات اللغوية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/122225

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الدراسات اللغوية عند العرب المحدثين

د. مختار الطاهر حسين
معهد اللغة العربية
جامعة الملك سعود

كان سقوط بغداد على أيدي التتار. وكان ذلك السقوط إيذانا بفترة طويلة من الجهل والظلام ، سادت الفكر العربي ، حيث تجمد كل شيء ، وخبت شعلة الحياة العقلية واللغوية والأدبية بشكل تام . وظلت الحال هكذا ، حتى مطلع عصر النهضة الحديثة ، حين أخذ العرب يتصلون بالأفكار الغربية في نهاية القرن التاسع عشر . وقد أدى ذلك الاتصال إلى إيقاظ الوعي العربي ، ومحاولة بعث التراث القديم،وإحيائه من ناحية ، والاتصال بالحضارة الغربية الحديثة من ناحية أخرى .

وقد بدأت النهضة في البلاد العربية بداية أدبية ، وظلت الناحية الأدبية مسيطرة زمنا طويلا على الثقافة العربية ، في الوقت الذي أهملت فيه الدراسات

اللغوية إهمالا كبيرا . وإذا تفحصنا التراث الذي أنتج في نهاية القرن التاسع عشر و مطلع القرن العشرين ، لوجدناه تراثا أدبيا خالصا - سواء في الشعر ، أو النثر . كما أننا سنلاحظ أن معظم أعلام العربية في تلك الفترة ، كانوا أدباء ، أو شعراء . و السبب في هذه الظاهرة ، يعود إلى أن التراث الذي نشر أولا ، كان أدبيا - كما ذكرنا - وبالمثل فإن أكثر ما ترجم من اللغات الغربية في تلك الفترة ، كان أدبا لا لغة . أضف إلى ذلك أن معالجة القضايا اللغوية أمر معقد، ربما يحتاج إلى زمن طويل ، لما يكتنف الدراسة اللغوية من صعوبات ومشكلات . ومن هنا شهد العصر الحديث تراثا أدبيا ضخما ، بالمقارنة إلى الدراسات اللغوية ، كما أنه شهد عددا كبيرا من الأدباء العرب ، لا يمكن مقارنته بعدد اللغويين في تلك الفترة .

اتخذت الدراسات اللغوية في العصر الحديث اتجاهين : الاتجاه التقليدي ، الذي يقوم على نشر كتب اللغة والنحو القديمة ، ككتاب سيبويه، وكتب ابن هشام ، واستيعاب ما جاء في تلك الكتب دون إضافة أو ابتكار ، اللهم إلا بعض الملخصات، التي كانت ذات هدف تعليمي . وهذا يعني سيطرة الاتجاه المعياري ، أو التقعيدي في العصر الحديث . بعد أن تم نشر عدد من الكتب اللغوية القديمة ، التي تعالج قضايا لغوية ، مثل : قضية الخطأ والصواب ، حيث ظهرت كتب عديدة تعالج الأخطاء اللغوية ، التي تظهر في كتابات الكتّاب ، أو في أحاديث المتحدثين ، مثل كتاب الأخطاء اللغوية للشيخ محمد النجار ، وأخطاؤنا في الصحف والدواوين لصلاح الدين سعدي ، وكتاب حول الغلط والفصيح على ألسنة الكتاب لأحمد أبو الخضر . بل منهم من كتب في أغلاط القدماء ،مثل الأب أنستانس الكرملي في كتابه أغلاط اللغويين الأقدمين . وهذه الكتب تعكس

اتجاها معياريا عاما ، يدعو لما يسمى باللغة النموذجية ، وهي تلك اللغة الموجودة في كتب التراث . وتتبع تلك الكتب ما يقوله الناس ، وما يكتبه الكتّاب ، وتحاول تطبيق المعايير اللغوية السابقة ، وعلى أساسها تحكم بالخطأ والصواب . هذا الاتجاه المعياري غذّاه ما نشر من كتب الأقدمين ، التي اهتمت بموضوع الخطأ والصواب في اللغة ، مثل : كتاب خطأ العوام للجواليقي الذي نشر سنة ١٨٧٥ م وكتاب إصلاح المنطق لابن السكيت ، وكتاب الجمانة في إزالة الرطانة ، لابن الإمام . ومن القضايا التي شغل بها أصحاب هذا الاتجاه المعياري ، رد الكلمات العامية إلى أصولها الفصيحة ، حيث كانوا يعتقدون بأن ألفاظ اللهجات العامية ، إنما هي في أصلها فصيحة . ومن الكتب التي عنيت بهذا الموضوع : كتاب أصول الكلمات العامية لحسن توفيق ١٩٨٨ م ، وكتاب تهذيب الألفاظ العامية للشيخ محمد الدسوقي ١٩١٣ م . كما أن كتب الأخطاء اللغوية تناولت هذا الجانب ، الذي تُردّ فيه الكلمات العامية إلى أصول فصيحة . ومن تلك الكتب : خطأ العوام للجواليقي ، و الجمانة في إزالة الرطانة لابن الإمام ، ولحن العوام للزبيدي ، وبحر العوام فيما أصاب فيه العوام لرضي الدين ابن الحنبلي .

ثم كان هناك اتجاه آخر شغل حيزا كبيرا من الدراسات اللغوية ، حيث نشرت كتب تعالج موضوع الأضداد في اللغة . ومن الكتب التراثية التي عنيت بذلك : كتاب الأضداد في اللغة لابن الدهان ، وكتاب الأضداد في اللغة للأنباري . كما عني العلماء بموضوع الترادف اللغوي . وقد شغلهم النحو ، فسعوا إلى كتابته بأسلوب عصري يسير ، محاولين تذليل صعوباته ، لتلائم الطلاب .

أما الدراسات الصوتية فقد كان الاهتمام بها ضئيلا جدا ، بالمقارنة مع الدراسات التي قام بها العلماء في العصور السابقة . (...وليس من العسير أن نضيف سببا آخر ، أدى إلى ركود البحث في الأصوات على مستوى شامل واسع ، منذ الرعيل الأول من علماء العربية حتى اليوم . ذلك أن الجهود الجبارة التي بذلها هؤلاء العلماء الأول في دراسة الأصوات ، لم تجذب إليها إلا نفرا قليلا من الدارسين ، وبخاصة أولئك الذين كانوا يشتغلون بالقراءات القرآنية وتجويد القرآن الكريم .[٤٥]

أما الاتجاه الآخر للدراسات اللغوية الحديثة عند العرب ، فهو ذلك الاتجاه الذي أخذ يذيعه بعض المستشرقين - الذين وفدوا على البلاد العربية - وهو ما يمكن أن نسميه بفقه اللغة ، ثم علم اللغة المقارن . وكان الأول يسعى لدراسة اللغة من الناحية التاريخية ، ثم دراسة ما حوته من حضارة . ويدخل في ذلك دراسة الاشتقاق والنحت والدخيل والمعرّب والأبنية والأوزان الخ ...، أما الدراسات المقارنة فكانت تهدف إلى دراسة العربية من خلال بقية اللغات السامية، حيث تتم مقارنة العربية بتلك اللغات ، وصولا إلى الجوانب المشتركة بين اللغات السامية في المستويات كافة. وكانت المقارنة تركز بشكل خاص على اللغة العبرية . أما المنهج الوصفي فقد ظل بعيدا في تلك الفترة . وقد درس المستشرقون اللغة العربية منطلقين من المبادئ اللغوية التي كانت ذائعة في أيامهم ، وهي الدراسة المقارنة للغة ، والدراسة التاريخية ، فتناولوا العربية في ضوء ذينك الاتجاهين ، وحاولوا دراسة تاريخها ، ونشأتها وأصلها ولهجاتها ، كما درسوها من خلال اللغات السامية دراسة مقارنة ، وعالجوا

قضية التطور اللغوي في العربية . ومن المستشرقين الذين أسهموا في هذا المجال : المستشرق برجسيراسر في كتابه : التطور النحوي للغة العربية ، والمستشرق يوهان فِك في كتابه العربية : دراسات في اللغة واللهجات والأساليب.

ويعد جورجي زيدان من أوائل اللغويين العرب ، الذين درسوا اللغة العربية من خلال المناهج التي طرحها اللغويون الغربيون في تلك الفترة ، حيث ألف فيما يسمى بفقه اللغة ، فكانت كتبه : الفلسفة اللغوية ، والألفاظ العربية ١٨٨٦ م وهو ترديد لما ظهر في الدرس اللغوي عند الغربيين في تلك الفترة ، حيث كانت تعالج قضايا مثل : ما هية اللغة ، وطبيعة اللغة ، ووظيفة اللغة . وقد حاول زيدان أن يدرس العربية متأثرا بتلك المفاهيم . فهو يدرس نشأة اللغة العربية ، ويحاول أن يعرف هل هي توقيفية ، أو توفيقية ، ثم يتحدث عن أصل اللغة ، ثم اكتشاف الكتابة . وقد كان كتابه : تاريخ اللغة العربية ـ على وجه الخصوص —شديد التأثر بالآراء اللغوية ، التي ذاعت لدى الغربيين في تلك الحقبة .

وسار الأب أنستانس الكرملي في العراق على الطريق ذاتها ، التي سار عليها جورجي زيدان ، فمقالاته كانت تعكس صورا من الآراء اللغوية لدى الغربيين . وهي آراء لا تخرج في عمومها عن مناهج الدراسة المقارنة . ودراسة تاريخ اللغة ونشأتها وطبيعتها . أما ما كتبه الكرملي في مجلة (لغة العرب) ، فهو محاولة لخدمة العربية ، عن طريق مناهج الغربيين في الدراسات اللغوية .

ثم ظهر بعد ذلك جيل آخر من اللغويين ، حاول الاتصال بالدراسات اللغوية لدى الغربيين في أحدث صورها ، على رأسهم الدكتور على عبد الواحد

والي ، الذي غلبت عليه الاتجاهات الاجتماعية ، فألف من الكتب : علم اللغة ، وفقه اللغة ، ونشأة اللغة ، فكانت جهدا عظيما . ومع أن تلك الكتب قد ألفت في الأربعينيات ، فلا زالت حتى اليوم من المصادر الأساسية ، التي يرجع إليها الطلاب في الدراسات اللغوية .

ثم جاء الدكتور إبراهيم أنيس . وإذا كان الاتجاه العام لعبد الواحد اتجاها اجتماعيا ، فقد كان اتجاه أنيس اتجاها لغويا . وهو أكثر اهتماما بالدراسات الصوتية بخاصة ، وأول من أفردها بكتاب مستقل ، هو كتاب : الأصوات اللغوية ، الذي يعد أول دراسة علمية لهذا العلم في العصر الحديث .

(تعود اتصالات اللغويين العرب بالدراسات اللغوية الغربية في العصر الحديث ، إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي . بيد أن انتقال المنهج الوصفي البنيوي إلى الدرس العربي ، جاء في وقت متأخر عن هذا التاريخ إذ بدأ في نهاية النصف الأول من القرن العشرين ، عندما أصدر الدكتور إبراهيم أنيس ، أول لغوي عربي تخرج في مدرسة لندن كتبه الثلاثة : الأصوات اللغوية ، وفي اللهجات العربية ، ودلالة الألفاظ . ثم تبع ذلك ترجمات لبعض كتب اللغويين ، لعل من أهمها ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص كتاب (اللغة) لفندريس عام ١٩٥٠ م) [٤٦]

كان كتاب أنيس : في اللهجات العربية الصادر سنة ١٩٥١ م أول كتاب مستقل في هذا المجال ، يهدف إلى دراسة اللهجات العربية المعاصرة ، وأسباب نشأتها ، وما أصابها من تطور في جميع المستويات. ثم تابع أنيس جهوده ، فأصدر مجموعة من الكتب منها : من أسرار اللغة ، ودلالة الألفاظ ، واللغة المشتركة ،

واللغة بين العالمية والمحلية ، وموسيقى الشعر . وقد اتخذ تأثير أنيس صورتين : فقد أحدثت كتبه السابقة آثارا مفيدة في التعريف بالدرس اللغوي الحديث ، كما أنه كان ذا تأثير شديد في تلاميذه الذين ، استمروا على السبيل نفسه.

وقد تمت في هذه الفترة ترجمة بعض الآثار اللغوية لدى الغربيين ، حيث قام د/ محمد مندور بترجمة مقالين في اللغة : الأول للأب الفرنسي لانسون ، والآخر للأستاذ أنطوان مييه في كتابه (منهج البحث في الأدب واللغة) . كما تمت ترجمة كتاب اللغة لفندريس –السابق ذكره – بواسطة الأستاذ عبد الحميد الدواخلي ، ومحمد القصاص .

وزاد الاهتمام بالدراسات اللغوية الحديثة –بعد ذلك –و ظهر عدد من اللغويين ، اتصلوا اتصالا مباشرا بالدرس اللغوي ، عند الغربيين في أوروبا و أمريكا ، ومن أولئك : د/ تمام حسان ، وكان له جهد عظيم التأثير في الحركة اللغوية . وقد ألف عدة كتب ، أصبحت مراجع لغوية أساسية في هذا المجال ، من أهمها : مناهج البحث في اللغة ، واللغة العربية معناها ومبناها ، واللغة بين المعيارية والوصفية . ثم ترجم كتابا في علم اللغة الاجتماعي هو : اللغة والمجتمع . وشارك د/ عبد الرحمن أيوب في تلك الجهود ، فألف كتابه : محاضرات في علم اللغة ، وكتابه في اللهجات العربية . وكان هناك د/ كمال بشر ، الذي عني أكثر بالدراسة الصوتية ، وله من الكتب : علم اللغة العام الجزء الأول والجزء الثاني ، وترجم كتاب : الكلمة ودورها ، وهي دراسة دلالية اجتماعية . ثم كانت إسهامات د/ محمود السعران الرائدة ، حيث ألف كتابه : علم اللغة : مقدمة للقارئ العربي ، وكان هدفه تيسير هذا العلم ، والتعريف به ، حتى يدمج هذا العلم الجديد في الثقافة العربية . وكانت أطروحته للدكتوراه

دراسة للأصوات العربية ، كما أن له كتاب : اللغة والمجتمع . وهو دراسة اجتماعية للغة . ثم تتابعت جهود لغويين آخرين ، أثرت هذا الميدان .

واقع علم اللغة الحديث في البلاد العربية :

ذكرنا فيما سبق أن الدراسات اللغوية الحديثة لدى العرب ، كانت تهدف إلى أمرين ، الأول : نقل هذا العلم عن الغربيين ، حتى يتعرف الناس إلى مبادئه ومناهجه ، ومن ثم الأخذ بها في دراسة اللغة العربية دراسة منهجية صحيحة . والأمر الثاني : تقويم الدراسات اللغوية القديمة لدى العرب في ضوء مناهج الدراسات اللغوية الحديثة . ولكن السؤال المهم : هل حقق اللغويون المحدثون هذين الهدفين ؟

الواقع أن ما قدمه العلماء المحدثون من تعريف بهذا العلم ، وطرح لمبادئه وأسسه، ثم محاولة نقد الفكر اللغوي عند العرب ، أمر لا يمكن إنكار أهميته . إلا أن تلك الدراسات كانت في أغلبها دراسات نظرية ، قليلة الاهتمام بالناحية العملية والتطبيقية . (والملاحظ أن الدراسات العربية اليوم ، قد أخذت حظا ملحوظا من ثمار اللسانيات ، غير أن حظها في الجانب النظري أوفر منه في الجانب التطبيقي ، مما يدفع الباحث اللساني على الحكم بحدود الدراسات النظرية ، ما لم تستغل في وصف لغوي جديد . ...) [٤٧]

ومن ناحية أخرى يواجه علم اللغة الحديث أزمة في البلاد العربية ، تشمل النظرية والمنهج والموضوع . (يعاني علم اللسانيات في العالم العربي من أزمة عامة . وتتمثل هذه الأزمة في مجالات النظرية والمنهج والموضوعات البحثية ، والجوانب المؤسسية المتصلة بأقسام تدريس اللسانيات ، وبالأستاذ وبتدريب

الطلاب . كذلك نجد أن هذا العلم لا يزال هامشيا ، مقارنة مع العلوم الإنسانية الاجتماعية الأخرى ، بالرغم من الازدياد المطرد للمتخصصين فيه ، وبالرغم من الأهمية المركزية لموضوعه : اللغة في المجتمع) . (٤٨)

المطلوب من علماء العربية المحدثين ، إخضاع اللغة العربية الفصيحة المعاصرة لدراسة وصفية ومنهجية ، في ضوء مناهج الدراسات اللغوية الحديثة ، وهذا هو الأساس في علم اللغة الحديث ، غير أن ما تحقق في هذا المجال شيء ضئيل جدا ، لا يتجاوز تلك المحاولات ، التي بذلت لدرس بعض اللهجات العربية الحديثة . أما العربية الفصيحة المعاصرة ، فلم تلق إلا القليل من الدراسة الوصفية . وأخفق أولئك اللغويون في أن يقدموا دراسة وصفية متكاملة ودقيقة للظاهرة اللغوية المعاصرة . ويعد ذلك من أهم المآخذ على الدراسات اللغوية الحديثة . (وعلى الرغم من نجاح البنيويين العرب ، في عرض الإطار النظري لعلم اللغة البنيوي ، وإقناع القائمين على أقسام اللغة العربية في معظم الجامعات العربية ، بتبني هذا المنهج —وجعله أساس الدراسات اللغوية —فإن نجاحهم في الجانب التطبيقي ، أي في مجال تعليم اللغة العربية لأبنائها — سواء في المدارس ، أو في الجامعات ، ظل محدودا . ولعل السبب في ذلك ، أن البنيوية الوصفية عند علماء العربية المحدثين ، لم تكن منهجا لبناء نموذج جديد للغة العربية،وإنما كانت منهجا نقديا لكتب النحو والصرف في التراث العربي). (٤٩)

وإذا ألقينا نظرة عامة على واقع الدراسات اللغوية الحديثة في البلاد

العربية ، نجد أنها لم تتبوأ المكانة التي نطمح إليها ، حيث لا زال كثير من اللغويين ينكرون علم اللغة الحديث . (إن المحاولات التي بذلها بعض اللغويين العرب ، في نقل كل ما قدمه علم اللغة الحديث ، وتطبيقه على اللغة العربية من ناحية ، و الفهم الخاطئ ، أو التفسير الناقص لكثير من النظريات اللغوية ، وأساليب التحليل اللغوي من ناحية أخرى ، حملا البعض على النفور من كل ما قدمه هذا العلم للغة العربية ، وفهم طبيعتها وتعلمها وتعليمها [٥٠]

يجب ألا تنحصر الدراسات اللغوية الحديثة في البلاد العربية ، في دائرة التراث اللغوي القديم تصويبا و تخطئة له ، كما لا يكفي مجرد ترجمة مبادئ الدراسة اللغوية عند الغرب ، وترديد نتائجها ، بل المطلوب ، - كما ذكرنا - هو الأخذ بالاتجاه العلمي والتطبيقي في هذا المجال ، حيث تخضع العربية لمناهج علم اللغة الحديث ، وصولا إلى وصف اللغة العربية المعاصرة وصفا علميا ، يوضح سماتها وصفاتها . كما ينبغي الخروج من دائرة الصراع بين المحدثين ، الذين يكتفون بنقل الحديث ، والتراثيين الذين يقفون عند حدود القديم ذلك لأننا في حاجة إلى جهود الفريقين . ومن الأفضل من الناحية المنهجية ، أن نعيد قراءة التراث اللغوي قراءة جديدة ، ثم نضيف إليه ما جد من أفكار نافعة في مجال اللسانيات الحديثة . (...ولا ينبغي أن نمل من التأكيد على أن دراسة ما قدمه أسلافنا ، ينبغي أن يسبق أية محاولة للتاريخ ، أو النقد ، فضلا عن أنه ينبغي أن يسبق أية محاولة للتجديد ...ولسنا ندعو إلى إغفال المناهج الحديثة ، بل ينبغي أن نكون على اتصال مستمر بها ، بشرط ألا نعجل في الحكم على

المنهج العربي قبل درسه ، لأن ذلك خطأ ، فضلا عن أنه خطير) . [٥١]

ومع أن علم اللغة الحديث ، طرح لدينا منذ أكثر من نصف قرن ، إلا أن الدراسات الوصفية والتطبيقية ، التي أجريت على اللغة العربية المعاصرة قليلة . ومقارنة سريعة بين ما كتب لدينا في هذه القضايا ، ولدى غيرنا تبين أننا مازلنا في بداية الطريق ، كما أن مقارنة أخرى مع ما كتبه أسلافنا في القضايا اللغوية ، توضح مدى القصور الذي يواجهه الدرس اللغوي عندنا . (وفي العالم العربي اليوم مشكلات لغوية ، لا يستطيع التراث اللغوي القديم ، أن يتصدى لها ، بالنظر إلى الظروف والملابسات العلمية لنشأته وتطوره مثل : علاقة الفصحى ومستوياتها بالعامية ومستوياتها ، وأثر العاميات العربية في تعلم الفصحى ، وطرق تعليم اللغة وتعلمها . وبصورة عامة المشكلات اللغوية المتصلة بعلاقة اللغة بالمجتمع ، والجوانب النفسية في اكتساب اللغة ، وأمراض الكلام ، والتخطيط اللغوي ، ووضع المعاجم الحديثة ، وغير ذلك من مشكلات لغوية ، يهتم بها علم اللغة ، أو اللسانيات من الناحيتين النظرية والتطبيقية ...) . [٥٢]

وإذا كان حجم الدراسات اللغوية عندنا بهذه الضآلة ، فلا نتوقع أن تكون هناك محاولات جادة للاستفادة من نتائج الدراسات اللغوية الحديثة في مجال تعليم العربية - كما سبق ذكره - ونظرة سريعة إلى المواد التعليمية التي أعدت في هذا الحقل ، تبين لنا أن معظمها أعد في غيبة علم اللغة الحديث . نحن في حاجة أولاً لنشر علم اللغة الحديث ومناهجه في جامعاتنا ومؤسساتنا العلمية ، كما علينا أن نقوم بتطبيق مناهجه العلمية في دراسة العربية المعاصرة ،

وعندما نصل إلى دراسة هذه اللغة دراسة علمية دقيقة ، نكون بطريق غير مباشر ، قد خدمنا مجال تعليم العربية لأهلها ولغيرهم . (إن تصدي علوم اللسانيات للقضايا التي ينطوي عليها مجال تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها ، يمثل مدخلا لخروج اللسانيات من أزمتها في جوانبها العملية والعلمية والمهنية . فالتصدي لمشكلات تعليم العربية لغير الناطقين ، بها يصبح توجها إيجابيا لاستخدام المعرفة لحل مشكلات عملية [٥٣]

وإذا عرضنا إلى لغتنا العربية ، فليس من المبالغة في شيء ، إذا قلنا إننا نستخدم اليوم لغة نجهل عنها الكثير. فلا زالت عربية اليوم بعيدة عن كل وصف علمي دقيق ، يوضح خصائصها ، ويبين سماتها . (ويكاد اللغويون اليوم يسلمون بداهة بضرورة إعادة وصف اللغات عموما ، حتى تكتشف نواميسها الخفية من جهة ، وتخلص مقاييس تلقينها وبلورتها من كل سمة اعتباطية ، أو معيارية من جهة أخرى . ولعل اللغة العربية من أشد اللغات حاجة إلى هذا الوصف الجديد ، إذ إن نحوها يرجع اليوم إلى ما ينيف عن اثني عشر قرنا ، ولم يكد يعرف تغيرا جوهريا منذ نشأته) . [٥٤] ومما لا شك فيه أن عبئاً ضخماً يقع على عاتق اللغويين العرب في هذا العصر ، وعلى علماء اللغة الوصفيين منهم بوجه خاص ، فنحن في وضع لغوي لا أدري كيف أصفه . فهو غامض ومضطرب وغير محدد.

وإذا نظرنا في الجهود اللغوية المعاصرة ، فسنلاحظ أن معظمها وجه إلى دراسة اللهجات العربية الحديثة ، أما الفصحى فحظها ضئيل جداً من تلك الدراسات، وكأنه قد استقر عند بعض لغوييننا ، أن الدرس اللغوي ممتنع على

الفصحى ، جائز على اللهجات . (أما علم اللغة الحديث ، فإنه يجد في اللهجات ميدانا خصبا ، لدراسة الظواهر اللغوية ، وتوزيعها جغرافيا في الوطن العربي ، ويحاول تفسير ظاهرة لغوية في مكان ما بوجودها ، أو انعدامها في مكان آخر من الوطن اللغوي) . (٥٥)

إن الدراسات اللغوية الحديثة لدينا ، لم تسهم إسهاماً فعالاً في دراسة الفصحى ، فليس بين أيدينا اليوم دراسات وصفيه دقيقة للأبنية النحوية ، أو بنية الكلمة ، وكذلك الحال بالنسبة للنظام الدلالي . ولعل النظام الصوتي أحسن حالاً من غيره ، فقد بذلت جهود جادة لوصفه ، ولكن حتى هذه الجهود ، لم تتحول إلى وصف شامل ودقيق لكل خصائص النظام الصوتي ، فقد اقتصر أكثرها على وصف الوحدات الصوتية ، على حين أن ظواهر صوتية أخرى - لا تقل أهمية عن هذه ، أهملت مثل ظاهرة النبر والتنغيم .

وبالرغم من أن عددا من الجامعات والمعاهد في البلاد العربية ، أخذت في الفترة الأخيرة تهتم بالدراسات اللغوية الحديثة ، فإن ذلك ما زال في حدود ضيقة ، حيث ما برح علم اللغة الحديث يواجه الكثير من الهجوم من غلاة اللغويين التقليديين ، الذين يرفضون هذا العلم الجديد جملة وتفصيلا ، وينكرون أن تكون له فائدة في دراسة اللغة العربية . ونود أن نطمئن هذا الفريق من الناس ، إلى أننا لا ندعو إلى الأخذ بكل ما جاء به الغربيون ، في مجال البحث اللغوي ، وأن نقفز إلى النتائج التي توصلوا إليها ، من خلال دراساتهم للغاتهم ، ونقوم بتطبيقها بحذافيرها على اللغة العربية . إننا لا ندعو إلى شيء من ذلك . وإنما ندعو إلى الاستعانة بالمناهج العلمية التي اتبعوها في دراستهم للغاتهم ، مع

مراعاة طبيعة اللغة العربية ، عند تطبيق تلك المناهج عليها . (بل إن بعض المتخصصين في علم العربية ، والمهتمين بأمر هذه اللغة في بعض المجامع اللغوية، ما زالوا ينظرون إلى هذا العلم نظرة الشك والارتياب ، لأنه علم أجنبي لم ينبت في أرضنا ، أو هو لون من التغريب ، إذا ما طبق على لغتنا ، يحاول هدمها ، والقضاء عليها بنظريات ومناهج لا تصلح لها ، وإنما تصلح مثل هذه النظريات لغير العربية من اللغات الإنسانية الأخرى) .[٥٦] هذا الاتجاه إلى دراسة اللهجات، وإهمال الفصحى ، إنما حدث بتأثير المدرسة اللغوية الأمريكية ، التي تزعم أن الفصحى لغة ميتة ، غير مستخدمة ، ومن هنا تنادى باستحالة درسها درساً علمياً . وبناء على هذا التوجه ، لم يكن غريباً أن أكثر البحوث والدراسات التي أعدها العرب في أمريكا ، كانت تدور حول اللهجات العربية المعاصرة . لا نريد أن نناقش تلك القضية على المستوى السياسي أو الثقافي ، وإنما نحصر أنفسنا في الإطار اللغوي ، فنقول إن الفصحى لغة حية ، وهي مستوى لغوي مستخدم بالفعل ، ولهذا فهي جديرة بالوصف والدرس ، شأنها في ذلك شأن اللهجات التي افتن الكثيرون بدرسها . (... وتتنوع الموضوعات التي تتناولها فصحى العصر بتنوع حضارة المجتمع ومعارفه ، فهناك العلم بفروعه من طب وحيوان ، وهندسة وكيمياء وطبيعة وزراعة وفلك ... إلخ . وهناك الفن من موسيقى ونحت ورسم وتصوير وزخرفة ... إلخ . وهناك الدراسات الإنسانية من تاريخ وجغرافيا وأجناس واجتماع ولغات واقتصاد وسياسة ... إلخ . وهناك الأدب من شعر وقصص وروايات ومسرحيات ورحلات ... إلخ . وهناك الصحافة بموضوعاتها المختلفة من أخبار داخلية وخارجية وسياسية ووفيات وإعلانات وفقد أختام ...

وهناك الإذاعة ببرامجها المتنوعة تنوع المجتمع نفسه)[٥٧] تحدث كثير من اللغويين المعاصرين عن إهمال قدامى اللغويين ، لدراسة ظاهرتي النبر والتنغيم، وكان المنتظر أن يتلافى المحدثون هذا القصور ، وفي حوزتهم اليوم أدق الأجهزة والمختبرات العلمية لفحص الصوت ودراسته ، كما أن أمامهم كثيراً من التجارب والدراسات التي أجريت على اللغات الحديثة في هذا المجال ، وشيء من ذلك لم يكن بين أيدي القدماء . (أما في العصور الحديثة ، فيختلف الأمر عنه في الفترات السابقة ، فقد هيأت الظروف للدارسين فرصا أفضل من ذي قبل ، ووضعت في أيديهم أنماطا دقيقة من وسائل البحث في الأصوات ، وهي وسائل لم يعهدها السابقون ، ولم يعرفوها . لقد أضحت الدراسة الصوتية الحديثة ، تستعين بفروع العلم الأخرى ، كوظائف الأعضاء والتشريح والفيزياء وغيرها . وأصبحت تخضع للتجارب المعملية والتطبيقات العملية المختلفة ، هذا بالإضافة إلى الوسيلة القديمة ، وهي الملاحظة الذاتية [٥٨]

ولسنا في حاجة ، لنؤكد أن وصف لغة من اللغات ، ليس عملاً فردياً ، بل هو عمل جماعي ، يحتاج إلى عدة فرق من اللغويين والخبراء ، كما أن مثل ذلك الوصف العلمي لا يتم في عام أو عامين ، بل الأمر يحتاج إلى زمن طويل . وإذا ألقينا نظرة إلى تلك اللغات التي عني بها أصحابها ، وكانت أكثر حظاً من الوصف اللغوي ، فسنجد أن هناك جوانب كثيرة منها ، لا زالت في حاجة إلى المزيد من الدرس اللغوي - كما ذكرنا - .

ولعلنا في البلاد العربية ، في حاجة مستمرة إلى أن نؤكد أهمية القضايا

اللغوية، ذلك أن الناس اعتادوا الانغماس في قضايا السياسة والاقتصاد ، ومن هنا أهملت القضايا اللغوية ، وكأنه قد استقر في الأذهان أن الاشتغال بالقضايا الثقافية واللغوية ، نوع من الفضول أو الترف .ومما يؤسف له أننا لا نتأثر بالشعوب المتحضرة إلا في حياتها المادية ، وإذا تعمقنا الأمور ، فسنلاحظ أن تلك الشعوب الراقية تعنى بلغاتها ، عنايتها بالسياسة والاقتصاد ، فهم يرون الأشياء كلاً متكاملاً .

وقد رأينا أكبر ساسة تلك الدول ، أكثر الناس عناية بحفظ لغتهم وحمايتها ونشرها ، فالإنجليز مثلاً ، وعلى أعلى مستوياتهم السياسية ، يعنون بنشر لغتهم في كل مكان ، ويرصدون الجوائز السخية ، للذين يبتكرون أفضل الطرائق والأساليب ، والوسائل التي تساعد على تعلمها . ويقوم كبار قادتهم بجولات في أنحاء العالم ؛ للتعرف علي وضع الإنجليزية في البلاد المختلفة . وقد تم مسح لوضع الإنجليزية في عدد من البلاد . ومن النتائج التي أدى إليها ذلك المسح ، أن الإنجليزية قد أصابها الكثير من التشويه خارج بريطانيا ، ولهذا رصدت جوائز قيمة لأفضل الاختراعات ، التي تساهم في تذليل الصعوبات ، وتساعد على نشر الإنجليزية ، وتخفيف الانحرافات التي تلحق بها .

نحن في حاجة إلى مثل هذه النظرة . علينا أن نخص العربية ببعض اهتمامنا ، ولعلنا إذا نجحنا في إصلاح الوضع اللغوي وتقويمه ، سهل علينا إصلاح أوضاعنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية . (إن الجانب اللغوي جانب أساسي من جوانب حياتنا ، واللغة مقوم من أهم مقومات حياتنا وكياننا ، وهي الحاملة لثقافتنا ورسالتنا ، والرابط الموحد بيننا ، والمكون لبنية تفكيرنا ، والصلة بين أجيالنا ، والصلة كذلك بيننا وبين كثير من الأمم . تلك هي

الأسباب التي تجعلنا ، نعنى باللغة عناية كبرى ، ونحلها في الصميم من قضايانا الحيوية) [٥٩]

لابد من العناية بلغتنا ، والسعي إلى دراستها دراسة علمية شاملة ، والسبيل إلى ذلك الاستعانة بالمناهج الوصفية الحديثة ، وهي مناهج استقرائية إحصائية ، ترصد الظاهرة اللغوية في فترة زمنية محددة ، وخلال مستوى لغوي واحد . والمنهج الوصفي لا يسلّم إلا بالحقائق التي تنبثق عن الدرس الموضوعي . و لا يحفل المنهج الوصفي بالآراء الانطباعية ، التي تناقض المنهج العلمي السليم. وقد لاحظنا في الفترة الأخيرة كثرة الآراء الانطباعية ، التي تصف بعض خصائص اللغة العربية . ولا شك أن مثل تلك الآراء الفطيرة ، لن تفيدنا في مجال عملنا .

أشرنا فيما سبق إلى مسؤولية اللغويين العرب المعاصرين ، في تحقيق وصف علمي دقيق وشامل ، للظاهرة اللغوية عندنا . ويجب ألا يكتفي أولئك الدارسون بالتعريف بالدراسات اللغوية عند الغربيين ، أو بالتراث اللغوي القديم لدى العرب ونقده ، وإنما يجب الإفادة من النوعين من الدراسات ، بحيث نأخذ من كل واحدة أفضل ما لديها ، دون انحياز إلى هذه أو تلك ، وصولا إلى إصلاح الوضع اللغوي ، الذي يتطلب جهود سائر علماء اللغة ، بغض النظر عن اتجاهاتهم ومدارسهم . (وخلاصة هذا هي أن التراث واللسانيات الحديثة ، يجب أن يدخلا في علاقة الألفة والتمنهج ، وبذلك تدخل الأصالة والمعاصرة في تحالف لا ينفك ، إلا بعد أن يكتمل المنهج اللغوي ، الذي نرجوه لهذه الأمة ، ولذلك ألححت في البداية على أننا إذا أردنا أن نكون معاصرين ، يجب أن نكون

تراثيين أولا) .[٦٠]

نحتاج في مجال تعليم العربية إلى ذلك الوصف العلمي ، الذي يجعلنا على بينة من أمر لغتنا ، فنعرف بشكل محدد ، أنظمتها الصوتية والنحوية والدلالية . (لقد قدم علم اللغة الحديث ، بفرعيه النظري والتطبيقي معطيات كثيرة ، وأدوات ووسائل نافعة ، يمكن الاستفادة منها في فهم طبيعة اللغة العربية ، وأساليب تحليلها مبنى ومعنى ، ثم تطبيق ذلك في تعلمها وتعليمها للناطقين بها ، ولغيرهم من الناطقين بلغات أخرى . ولكن ينبغي أن يلاحظ أن الاستفادة من معطيات علم اللغة الحديث ، لا تعني بالضرورة التسليم بكل النظريات والآراء التي قدمها هذا العلم ، وتطبيقها على اللغة العربية) .[٦١]

ومقارنة بتجربة تعليم اللغة الإنجليزية على المستوى العالمي ، يمكن القول إن الأسباب التي أدت إلى انتشارها هذا الانتشار الواسع - بين غير أهلها - أن مناهجها وبرامجها ، قامت على لغة موصوفة مشخصة ، حيث توفر علماؤهم على دراستها ، فيسروا عملية التأليف فيها .

أما بالنسبة للعربية ، فالذي يريد إعداد مواد تعليمية ، عليه أن يقوم بذلك الوصف بنفسه ، ويكون الوصف في مثل هذه الحالات ، مرتجلاً وفردياً وجزئياً . وفي كثير من الأحيان لا يكلف معد المادة التعليمية نفسه مشقة الوصف ، فيؤلف كيفما اتفق ، ويأخذ من اللغة ما يصادفه دون تمييز أو تحديد ، ودون معرفة بخصائص اللغة ومميزاتها . ولعل فشل معظم الدعوات ، التي نادت بإصلاح مناهج العربية لأهلها ولغيرهم ، منذ مطلع القرن العشرين ، يعود إلى أن

تلك الدعوات ، لم تستند إلى دراسة علمية للغة العربية .

مجالات الوصف اللغوي الحديث :

خدم اللغويون العرب القدامى -كما ذكرنا -لغتهم أجل خدمة . تشهد على ذلك هذه المكتبة الضخمة من التراث اللغوي . وإذا قارنا الحاضر بالماضي ، رأينا ما لدينا جهودا ضئيلة ، ونتاجا قليلا ، في وقت تحتاج فيه لغتنا إلى كثير من البحث والدرس ، لما أصابها من تطور في هذا العصر ، وفي غيره من العصور المتأخرة ، ولما يحدق بها من تحديات ثقافية وحضارية . وينبغي أن يشمل هذا الدرس جميع أنظمة اللغة ، النظام الصوتي ، والنظام الدلالي ، والنظام النحوي. وسنستعرض فيما يلي بإيجاز واقع تلك الأنظمة .

أولا : النظام الصوتي :

إذا كانت الدراسات الصوتية المعاصرة عندنا ، أحسن من غيرها -كما ذكرنا - إلا أننا حتى في هذا الجانب ما زلنا في بداية الطريق . فالعربية اليوم لا تستخدم نظاماً صوتياً واحداً ، بل هناك عدة مستويات صوتية في عربية اليوم . فنحن مثلاً في حاجة إلى وصف أداء قراء القرآن ، الذي وصل إلينا متواتراً ، كما أننا في حاجة إلى وصف هذا الأداء الذي نسمعه من وسائل الإعلام العربية . هذا بالإضافة إلى وصف أنماط النطق المختلفة في اللهجات العربية ، وصولاً إلى معرفة التطور الذي أصاب اللهجات في كل منطقة ، وتحديد الاختلافات الصوتية بين سائر اللهجات من ناحية ، وبينها وبين العربية الفصحى المعاصرة ، ومقارنة كل ذلك باللغة التي جاءتنا بعض ملامحها في كتب اللغويين العرب

القدامى . (لقد تطورت بعض الحروف العربية في بعض المناطق فتغيرت أصواتها ، فأصبحت القاف همزة في اللغة العامية في بعض البلاد ، وكذلك الثاء والذال والظاء،فقد أصبحت تاء ودالا وضادا ، إلا في بعض الكلمات . وقد كان هذا التبدل عاما في جميع الكلمات ، التي اشتملت على هذه الحروف ،وكانت كذلك عامة ، لدى جميع أفراد المنطقة ، التي جرى فيها هذا التبدل ، كما هو واقع في مدن مصر والشام ، وبعض مدن المغرب) [٦٢]

ثانيا : النظام الدلالي :

يلاحظ بشكل عام أن النظام الدلالي الذي نستخدمه اليوم ، أكثر الأنظمة اللغوية تطوراً وتغيراً عندنا ، بحيث لم يعد الاعتماد كافياً على الألفاظ اللغوية التي وردت في المعاجم القديمة .هذا التطور الدلالي الواسع الذي أصاب عربية اليوم ، كان بسبب هذا الطوفان الهائل من المعاني الذي حمله إلينا العصر ، في جميع المجالات العلمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية ....الخ . وهذا يعني ضرورة القيام بدراسات دلالية دقيقة ، تقوم على رصد الألفاظ المستخدمة اليوم ، لتحديد دلالاتها المختلفة . (يمكننا أن ندرس كلمة من الكلمات في عصرنا ، ونحصي استعمالاتها ، ونحدد معناها أو معانيها ، وذلك بجمع نصوص كافية من كلام هذا العصر الذي نعيش فيه ، فتكون دراستنا هذه دراسة لواقع اللغة في عصرنا . ولكن الكلمات التي نستعملها اليوم ، لها تاريخ سابق وحياة قد تكون طويلة ، وقد يكون معناها الحالي مغايرا لمعانيها القديمة ، لذلك وجب الأخذ بطريقة الدراسة التاريخية التطورية ، التي تدرس الألفاظ

على تعاقب العصور، وفي مختلف الأطوار التي مرت بها) . [٦٣]

يشتكي كثير من طلابنا أنهم يقرؤون الكتاب أو الصحيفة، فتصادفهم كلمات لا يعرفون معانيها، حتى إذا عادوا إلى المعاجم القديمة، وجدوا تلك الكلمات، ولكن بمعاني أخرى، أو لم يجدوها على الإطلاق، كما أنهم يقضون وقتاً طويلاً، حتى يصلوا إلى تلك الكلمات، لصعوبة البحث في المعاجم القديمة .

إن وجود دراسة دلالية حديثة بين أيدينا، يساعدنا مثلاً على إعداد المعاجم المناسبة لأبنائنا، وينبغي ألا تنكر تلك المعاجم اللغة المستخدمة اليوم - منطوقة ومكتوبة -بالإضافة إلى الألفاظ العربية الواردة في المعاجم القديمة، ونصوص التراث الشعرية والنثرية . ونرجو أن نشير هنا إلى ظاهرة خطيرة بالنسبة للمعاجم العربية، حيث يأخذ بعضها من بعض، مما جعلها متشابهة ومكررة في كثير من الأحيان . والأسلوب الصحيح في رأينا، أن ننطلق في إعداد تلك المعاجم الحديثة من المادة اللغوية المستخدمة أولا . وهذا يعني حصر الألفاظ الواردة في الاستخدام مشافهة وكتابة، في هذا العصر، ثم نضيف إليها بعد ذلك، ما ورد في المعاجم العربية الموثوق بها، والنصوص العربية القديمة شعرا ونثرا . وهذا هو الأسلوب الذي اتبع في إعداد المعاجم الغربية الحديثة، كمعجم Oxfordمثلا . ومن جهة أخرى يجب أن تهتدي تلك المعاجم، بأحدث الأساليب المتبعة في بناء المعاجم، من حيث التنظيم والمنهجية، والترتيب الداخلي للمداخل، بحيث يستطيع الدارس الوصول إلى ما يريد في أسرع وقت، وبأيسر جهد .

وعن طريق اتباع الأساليب المشار إليها —سنتمكن بإذن الله - من تصميم معاجم حديثة متعددة الأغراض والمستويات ، يراعى فيها عنصر التدرج ، فتكون هناك معاجم تحتوي على ٥٠٠ كلمة ، وأخرى على ١٠٠٠ كلمة ، وثالثة على ١٥٠٠ كلمة ، ورابعة على ٣٠٠٠ آلاف كلمة ...الخ . ولتكن بعض المعاجم آحادية اللغة ، وأخرى ثنائية اللغة ، وثالثة متعددة اللغات ، و ينبغي أن تستخدم أساليب مختلفة في عرض المادة ، فتكون هناك معاجم مصورة ، تعتمد على الصورة فقط ، وهي معاجم المبتدئين ، ومعاجم أخرى تعتمد على السياق اللغوي ، وتستعين بالصورة والتعريف والمثال ، وغير ذلك من وسائل عرض المفردات . وتكون هذه المعاجم لطلاب المستوى المتوسط والمتقدم . ومن الواضح أن بناء المعاجم ، لن يكون عملاً علمياً دقيقاً ، ما لم تسبقه دراسات وصفية ، تحدد المفردات الشائعة ، وغير الشائعة و المهمة ، وغير المهمة ، و الخاصة بكل مجال .

ثالثا : النظام النحوي :

وقل مثل ذلك بالنسبة لدراسة الأبنية النحوية ، ونكرر هنا أن الآراء الانطباعية المتعجلة ، لا تفيد في هذا المجال ، فلا يكفي أن نمر على عيِّنة محدودة ، لنستنبط ظاهرة لغوية ، نبني عليها الكثير من القواعد . ومما يؤسف له أن عدداً من علمائنا المعاصرين ، انجرفوا وراء هذا التيار الانطباعي ، محاولين تحديد بعض سمات الفصحى المعاصرة ، فجاءت أفكارهم مرتجلة ، ومتناقضة في كثير من الحالات ، فقد تسمع من يقول : إن الجملة الاسمية لدينا أكثر تداولاً من الجملة الفعلية، وهناك من ينادي بالعكس ، ولو كان الأمر يقوم على دراسات إحصائية ، لما كان هناك اختلاف .

ولعل الدراسات الوصفية الجادة لعربية اليوم ، تسلمنا في النهاية إلى

تصورات تختلف من تلك التصورات التي توصل إليها القدماء . و مثل تلك الدراسات ، قد تقودنا إلى اكتشاف حقيقة عجيبة ، وهي أننا نستخدم اليوم لغة لا نعرف قواعدها . وهذا الوضع يجعلنا أمام طريقين : أحدهما أن نعود إلى استخدام لغتنا القديمة ، التي ندرس قواعدها في الكتب والمعاجم (وهذا أمر لا سبيل إليه) ، والثاني أن نستمر في استخدام العربية المعاصرة ، ولكن بشرط أن نعرف قواعدها وخصائصها .

وسائل الإصلاح اللغوي

ذلك واقع اللغة العربية اليوم ، وهو واقع مؤلم ، يتطلب العلاج الناجع ، والإصلاح الشامل . وتقع مسؤولية ذلك الإصلاح على علماء اللغة المحدثين ، الذين عليهم النظر إلى العربية نظرة شاملة ، بوصفها لغة التراث دينا وحضارة وأدبا وثقافة ، ولغة العصر التي ينبغي أن تحمل كل ما يفيض به من علوم وفنون وحضارة ، ولغة التواصل الحي بين أبنائها (أكثر من ٣٠٠ مليون عربي) وغير أهلها (أكثر من مليار مسلم) .

ومن أهم وسائل الإصلاح اللغوي في رأينا ، ما يلي :

الدرس الشامل للغة العربية الفصيحة المعاصرة .

وهي دراسة تتجاوز الجزئيات إلى الكليات —وتأخذ بالمناهج العلمية الموضوعية ، وصولا إلى وصف شامل لهذه اللغة . (إن كبرى المشكلات المثارة في العالم العربي، والتي تعود إليها سائر المشكلات في ميدان اللغة ، هي مشكلة نهوض اللغة العربية ، وقدرتها على الوفاء بحاجات أهلها في هذا الحياة الجديدة ، سواء في ميدان العلوم ، أو الفن ، أو الأدب بأغراضه وآفاقه الحديثة ، أو في ميدان

الحياة العملية ، بما فيها من مستحدثات لا ينقطع سيلها . وإن البحث في هذه المشكلة ، وتقديم الأجوبة السديدة ، والحلول الصحيحة فيها ، وفيما يتفرع عنها ، يقتضي العودة إلى جذور هذه القضية . ولا بد من بناء ذلك على معرفة عميقة شاملة للغة العربية وخصائصها الأصيلة ، لا على معرفة مسائل منثورة ، ومعارف متفرقة في النحو والصرف واللغة ، ولا على مناقشة جزيئات القضية ، وعرض أمثلة محدودة في هذا الموضوع ، فإن تقديم صورة كاملة ، ومخطط شامل للغة العربية ، هو الخطوة الأولى نحو الحكم الصحيح في أساس المشكلة ، وجوهر القضية) .[٦٤]

وعملية وصف اللغة العربية المعاصرة ، ليست بالأمر الهين ، حيث تعترضها صعوبات عديدة ، أوجزها دكتور يوسف الخليفة في الآتي : (إن المشكلة التي يواجهها علماء اللغات في وصف اللغة العربية ، تتركز في عدة أمور : أولها ، عدم شيوع الفكر الألسني ، أو اللغوي الحديث بين المشتغلين باللغة العربية من ناحية ، وتقديس هؤلاء القوم للتراث النحوي العربي ، واعتقادهم أنه لن يأتي أحد بمثل ما أتى به الأوائل . ثانيهما ، أن علماء اللغة المحدثين في العالم العربي ، جلهم من أساتذة اللغة الإنجليزية ، الذين يعوزهم التعمق في العربية نحوا وصرفا وبلاغة . ثالثهما ، الاتهام الذي يوجه من البعض "على أساس سياسي" من أن إعادة وصف اللغة العربية ، إنما هو سعي لهدمها ، ودعوة لاستخدام العامية) [٦٥]

إذاعة المستوى اللغوي الفصيح

يجب أن نحصر معظم جهودنا في إطار الفصحى ، وقد أصبح من الممكن اليوم التدخل في مسار الظاهرة اللغوية ، والتحكم في اتجاهها ، وذلك من خلال خطة مدروسة ، تقوم على إذاعة مستوى لغوي بعينه ، والحد من غيره عن طريق التعليم ، ووسائل الإعلام المختلفة ، التي تشكّل الإنسان ، كما تشكّل لغته ، وهي تجارب سبقتنا إليها أمم كثيرة . (إن معرفة خصائص اللغة وقوانينها وسنن تطورها ، يمكننا من إصلاحها ، ومراقبة تطورها ، والسير به في اتجاه صحيح ، يناسب خصائصها الأصلية ، ولا يعرضها للذوبان والانحلال . فاللغة العربية واقعة الآن بين نزعتين : إحداهما لا تبالي بخصائص اللغة ، فترى دخول الألفاظ والتعابير الأجنبية بلا قيد ولا شرط ...والنزعة الأخرى ترى الاحتفاظ باللغة ، كما رويت عن القدماء ، دون تبديل في الألفاظ ، أو المعاني ، أو التعابير . ولا بد من الموازنة بين النزعتين ، والإشراف على سير التطور ، ليكون حاضر اللغة استمرارا لماضيها ، مراعيا لظروفها الحاضرة) .[٦٦]

نحن لا ندعو إلى إلغاء اللهجات العامية ، بجرة قلم من حياتنا اللغوية ، فذلك أمر مستحيل ، ولم يحدث مثله في يوم من الأيام ، حيث تثبت المراجع أن العربية في عصورها الأولى ، عرفت مستويات غير المستوى الفصيح ، إلا أن تلك المستويات ، لم تكن تزاحم اللغة الفصيحة ، وتسعى إلى القضاء عليها ، وإنما كانت تستعمل في جوانب معينة من حياة الناس . وبناء على ذلك ندعو في هذه المرحلة ، إلى نوع من التصالح بين اللهجات العامية ، واللغة العربية الفصيحة ، حتى يتم التقارب بينهما ، ومن ثم توحيد الخطاب الثقافي واللغوي . (واللهجات،

وإن لم يعتمدها اللغويون العرب مصدرا أساسيا من مصادر التقعيد والاحتجاج ، لها واقع ظاهر ، ووجود ملموس في أعمالهم على جميع المستويات الصوتية الصرفية والنحوية ، وعلى مستوى الألفاظ ودلالاتها . لا ننكر أنهم في القرون الأولى " قرون التقعيد " لم يمنحوا اللهجات قدرا ذا بال من العناية والاهتمام ، ولم يخلّفوا لنا عملا ، أو مؤلفا مستقلا يختص بالنظر فيها ، وفي طبيعتها وأنواعها ، وخواصها المميزة لها ...) [٦٧]

علينا أن ننظر في تجربة إحياء اللغة العبرية،التي كانت أقرب إلى اللغات الميتة ، غير أن أصحابها أدركوا أهمية اللغة في الحفاظ على هوية الأمة ، فقام علماؤهم بجهود جبارة ، لجمع ما تناثر من لغتهم ، وهيئوا لها من الوسائل العلمية والإعلامية ، ما أعاد إليها الحياة ، وأقنع الإسرائليين باستخدامها في حياتهم . (إن التخطيط اللساني الذي كان عليه ، أن يؤدي إلى ولادة العبرية الإسرائيلية ... بدأ منذ نهاية القرن التاسع عشر ... والواقع أن اليعازر بن يهود قد انكب على العمل منذ نهاية السنوات ١٨٨٠م ، لترقية لسان مكتوب منذ أمد بعيد ، هو العبرية التوراتية ، إلى مقام لغة محكية نموذجية لكيان وطني ، لم يكتسب مقام دولة وقاعدة إقليمية إلا اعتبارا من ١٩٤٨ م ... وكان يوصي بتطوير العبرية الحديثة أولا ، بأن ينهل من مناهل النصوص القديمة) [٦٨]

ولدينا اليوم من الوسائل ما يمكّن لهذا المستوى الفصيح ، فوسائل الإعلام ، تستطيع الإسهام في نشر هذا المستوى اللغوي . وهذا ما تسهم به كثير من القنوات الفضائية العربية ، التي تتجه الآن إلى تثبيت خطاب عربي لغوي ،

موحد ، أو شبه موحد . كما أن انتشار التعليم والثقافة ، لهما دور فاعل في إذاعة اللغة العربية الفصيحة . وهذا أمر ملاحظ اليوم ، حيث يسهل على المتعلمين " جيل المستقبل " استخدام العربية الفصيحة ، وفهمها . وهم يتميزون في ذلك على جيل الأجداد ، الذي لم يكن له حظ من التعليم ، مما أبعدهم عن العربية الفصيحة ، وجعلهم يستخدمون اللهجات المحلية ، ويصعب عليهم التفاهم باللغة العربية . (ولا ريب أن تطور وسائل النشر والإعلام في الوطن العربي ، سوف يفرض على العاميات المختلفة في الأوطان العربية قدرا لغويا واحدا في المستقبل القريب ، أو البعيد ، أي : أن هذه العاميات سوف تتقارب وتتفاعل ، لتتخلق من بينها لغة منطوقة مشتركة ، يستخدمها الناطقون من المحيط إلى الخليج ، وهي لغة أقرب إلى طبيعة الفصحى ، منها إلى أية عامية من العاميات الحديثة ، لأن الحركة الثقافية في الوطن العربي ، متجهة بكل طاقاتها إلى دعم الاتجاه الوحدوي بين المواطنين في كافة أرجاء الوطن العربي ، وليس كاللغة الفصحى وسيلة لتوحيد القلوب ، من طريق توحيد الألسنة ، ويومئذ سوف يعد الخروج على سنن اللغة الجديدة ، انحرافا عن الصواب اللغوي المستحدث ، وهكذا ...) [٦٩]

قيام مؤسسات لغوية قومية

وإذا كانت القضية اللغوية بهذه الخطورة التي أوضحناها ، فإننا نقترح قيام مؤسسة لغوية تشارك فيها جميع الدول العربية ، وهي مؤسسة تختلف عن المجامع اللغوية منهجاً وأسلوباً واتجاهاً وحركة . ومن مهام تلك المؤسسة العلمية استقصاء التراث اللغوي القديم ، وإعادة قراءته ودراسته وتحليله . ومن مهامها أيضاً دراسة الوضع اللغوي المعاصر في البلاد العربية ، وسيكون أحد

أهداف هذه المؤسسة تحقيق الوحدة اللغوية بين العرب التي هي أساس كل وحدة. (...وأكثر هذه المشروعات شمولا ، هو مشروع بحوث اللغة العربية المعاصرة . وهو المشروع الذي تنجزه المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (معهد الخرطوم الدولي للغة العربية) وينطوي على دراسة الخصائص اللغوية للغة العربية المعاصرة ، كما هي مستخدمة اليوم في كل الدول العربية)[٧٠]

إن الدراسات اللغوية الحديثة يجب أن تستخدم في الجمع لا في التفريق ، وهي قادرة على أداء ذلك الدور. وتستطيع تلك المؤسسة أن تضع حدا لهذه الفوضى اللغوية ، وستتمكن تلك المؤسسة - بجهود العاملين فيها - من تثبيت المستوى اللغوي الفصيح ، الذي يجتمع العرب عليه في اتجاه اللغة الموحدة.

ومن واجبات تلك المؤسسة التي اقترحنا قيامها ، وضع تخطيط لغوي شامل ، يعكس تطلعات الأمة العربية في تبوء المكان الجدير بها . ولا شك أن التخطيط اللغوي ، أحد الوسائل التي تحقق ذلك الهدف . (إن الأخذ بمبدأ التخطيط اللغوي Language Planning في العالم العربي اليوم ، قد يكون الخطوة الأولى على بداية الطريق لحل مشكلات حياتنا اللغوية ، وهي مشكلات جديرة بأن تكون في مقدمة مشكلاتنا القومية ، والسياسية والاجتماعية . بل لعلي لا أكون مسرفا ، إذا قلت إنها مشكلات خليقة ، بأن تهز كيان الأمة العربية هزا ، سواء اليوم أو غدا . فماذا عن العربية والمستقبل ؟ هل أعددنا لذلك سياسة لغوية محددة وواضحة ؟ ألا يدق زحف اللغات الأجنبية ومحاربتها العربية في عقر دارها في كثير من بلدان الوطن العربي ناقوس

الخطر ، الذي لا نكاد نعرف أثره ومداه على لغتنا في العشرين عاما القادمة مثلا ؟) [٧١]

ونرجو أن ننبه في النهاية ، بأن الجانب التعليمي يقوم بدور فاعل ، في نشر اللغة العربية الفصيحة ، مما يتطلب حسن إعداد المناهج والمواد التعليمية الملائمة ، واستعمال طرائق التعليم ، والتقنيات الحديثة ، وغير ذلك من عناصر العملية التعليمية . غير أن الاكتفاء بذلك ، لا يحقق الأهداف البعيدة التي نرمي إليها ، وهي بسط الثقافة العربية ، ونشر لسانها الفصيح . والوسيلة إلى ذلك ، بالإضافة إلى الجهود العلمية ، وضع اللغة العربية وجها لوجه مع العصر الذي نعيش فيه ، بما فيه من ثقافة وحضارة . (... فنشر الفصحى وتقويتها ، وإعادتها إلى سالف العهد بها ، لا تكون بزيادة ساعات القواعد ، ولا بحفظ قوائم الكلمات التي تتفق فيها الفصحى والعامية ، بل يكون ذلك بالأخذ بأسباب الحضارة الفكرية الحديثة . يكون بنشر العلم ، وغرس طرق التفكير المنهجي . يكون بإغناء العقل والفكر والنفس بكل ذي قيمة ، من علم وفن وأدب . أي يكون بنشر أنماط الحضارة التي تربط تلقائيا بالفصحى والمستويات العليا من التعبير اللغوي ...) [٧٢]

الهوامش

(١) حمزة قبلان المزيني —دراسا... تاريخ اللغة العربية (ترجمة) —ص ١١

(٢) رمضان عبد التواب. فصول ... العربية —ص ١٠٨

(٣) عبده الراجحي —فقه اللغة ... الكتب العربية - ص ٣٤

(٤) رمضان عبد التواب —حاجة ... اللغوي إلى التهذيب والتنقية : بحوث ومقالات في اللغة —ص ١٤١

(٥) عبده الراجحي —فقه اللغة في الكتب العربية - ص١٧٨

(٦) المرجع السابق —ص ١٧٧

(٧) المرجع السابق ١٧٩ —

(٨) صبحي الصالح —دراسات في ... —الاتجاه السامي

(٩) تمام حسان —اللغة ...

(١٠) عبده الراجحي ... في الكتب العربية ص ١٧٩ ١٨٣ —

(١١) تمام حسان —اللغة ... اللغة العربية معناها ومبناها

(١٢) المرجع السابق ... دراسات في ... تحليل

(١٣) ميشال ... بحوث ألسنية عربية —...

(١٤) رمضان عبد التواب —بحوث ومقالات في ... —ص ١٥٩

(١٥) عمار أحمد مختار طليمات —في علم اللغة ...

(١٦) محمد عيد —النحو العربي بين النظر والتطبيق : في اللغة ودراستها —ص ١٩٩

(١٧) عبد الرحمن أيوب —محاضرات في اللغة - ص ٧

(١٨) محمد عيد —النحو العربي بين النظر والتطبيق في اللغة ودراستها —ص ١٩٩

(١٩) سامي حنا وآخران - معجم اللسانيات الحديثة —المقدمة

(٢٠) عبد الراجحي —الوصفيون والنحو العربي : النحو العربي والدرس الحديث : بحث في المنهج —ص٤٨

(٦٠) محمد المبارك –فقه اللغة وخصائص اللعربية – ص ٢٣٢

(٦١) محمد الحناش –البنيوية في اللسانيات –ص ٦

(٦٢) عبد العزيز إبراهيم العصيلي – طرائق تدريس اللغات وتعليم اللغة العربية : النظريات اللغوية والنفسية وتعليم اللغة العربية – ص ١٣٩

(٦٣) محمد المبارك –فقه اللغة وخصائص العربية –ص ٣٧

(٦٤) المرجع السابق –ص ١٦٥

(٦٥) يوسف الخليفة أبو بكر –ندوة تدريب معلمي اللغة العربية والتربية الإسلامية –ص ٢٦ – ١٩٩٣

(٦٦) محمد المبارك –فقه اللغة وخصائص العربية – ص ٤١

(٦٧) كمال محمد بشر –علم اللغة الاجتماعي "مدخل" –ص ٨٨

(٦٨) جولييت غارمادي –اللسانة الاجتماعية –ص ٢١٦

(٦٩) عبد الصبور شاهين –في علم اللغة العام –ص ٢٣٩

(٧٠) عشاري أحمد محمود –أزمة اللسانيات في العالم العربي : المجلة العربية للدراسات اللغوية –المجلد السادس –ص ٢١ –فبراير ١٩٨٨

(٧١) حلمي خليل –دراسات في اللسانيات التطبيقية – ص ٣

(٧٢) السعيد محمد بدوي –مستويات العربية المعاصرة في مصر – ص ١٥